الجزء الثانى عشر من جمادى الآخرة ١٣٣٠ — ايار ١٩١٢

وضع اللغات وخضوعها للطبيعة

ذهب الاوائل مذاهب شتى فى من هو واضع اللغات ، فقال بعضهم : انه الخالق العظيم وضعها مباشرة او بالهام منه ؛ وينسب الاصوليون الى سليمان بن عباد القول بان الوضع حدث بالمناسبة الذاتية ؟؟ ويفسرون هذا الرمز بان الالفاظ بطبيعتها ولمناسبة ذاتية فيها دلت على المعانى دلالة ازلية . وخشى بعض اهل الرهبة من علماء الاصول وجود تلك الروح فى الالفاظ واحتمال القدرة او القوة الكامنتين فيها فاخذ ينزل ذلك ويؤوله طبق الاصول المسلمة عند العقلاء قائلاً ماملخصه :

ان الالفاظ وان دلت بطبيعتها الا ان المبدأ الاعلى فى تلك الدلالة هو الخالق ، شأنه فى رجوح اكثر الظواهر الطبيعيه اليه ، فدلالة الالفاظ بالطبيعه مثل هبوب الرياح ، ونزول الامطار ، ولمعان البرق ، وجولان السحاب ، من رجوعها ظاهراً الى الطبيعه والاسباب المخلوقه وواقعاً الى الخالق . هكذا كتب بعضهم فى هذا القول الغريب الذى لاتفهم فلسفته .

ثم ان الرأى المعول عليه فى هذا العصر ، عصر الانتقاد والتمحيص ، هو ان اللغات كلها جميعاً نشأت من الاصوات الطبيعية وتكونت قهراً بعد ارادة التعبير عن المرئيات اوغيرها ، من معلومات الانسان الاول ، وليس هذا الرأى بحديث العهد ، فقد قال به بعض العلماء الاول ؛ كما قالوا بكثير من الآراء العلميه المسلمه فى هذا العصر المنسوبه اليه ، الملزوزة به . فقد ذهب بعض الاوائل الى حركة الارض وقد عبروا عن الجاذبيه بالثقل المركزى وذهبوا ايضاً الى القول بالنشوء والارتقاء واتحاد اصل الكائنات اجمالاً ، الى غير ذلك من المذاهب العلميه التى يحسب بعضهم انها ابكار ، هذه الاعصار . وكذلك قل عن المذاهب الاجتماعيه كالاشتراكيه والاباحيه او السياسيه كالجمهوريه او الملكيه فقد قيل فيها فى الازمنه الخاليه بل ووضعوها موضع الاعمال .

فالقول بان اللغه من وضع الانسان قديم ، قال العرب به . وممن نذكر ان مذهبهم ذلك ابن سيده اللغوى الكبير صاحب المخصص امتع

كتاب فى اللغة العربية ، غير انهم لم يصرحوا فيما اعلم بان الالفاظ تكونت من الاصوات البسيطة بل صرحوا بانها من وضع الانسان مباشرة لا من وضع غيره .

وقد استنكر الجامدون هذا المذهب واعترضوا عليه ذاهبين الى ان الاحاطة بجملة المعانى الموضوع لها غير مقدور للبشر. فيقال لهم ان المعانى لم تعلم دفعة واحدة ، وكذلك الالفاظ لم توضع دفعة واحدة ، بل كلما تجددت المعانى ، وعلا ادراك الانسان ، وتصور الامور الدقيقة ، اضطر لاحداث الالفاظ متبعاً فى ذلك التدريج ، لان الطفرة محال

هذا ما كان من امر وضع اللغة فقد عرفت ان العرب قالوا باصح الآراء فى مشكلة الوضع والواضع . وهناك نواميس طبيعية عامة مثل ناموس (التحول) وناموس (بقاء الاصلح) فهل اللغة خاضعة لها ؟؟ جارية على سنتها جريان سائر الاشياء ، وهل عرف العرب ذلك كما عرفه الافرنج ؟؟ فنجيب بنعم عن الجميع ، واليك البيان :

اللغة كالاخلاق او ككل مميزات الانسان ، خاضعة للقوى العاملة فيه فيصح من بعض الوجوه ان نقول انها كائن حى كالانسان ، ولحياته اطوار كاطوار حياة الانسان ، فما كان ليسمع المقيم فى احياء عرب الجاهلية من الالفاظ غالباً الا امثال السباسب والبسابس والفيلان والذعلبة والكوماء والفنيق والبيداء والفيفاء والاجرد وما اشبه ذلك وما كانت لتمر الالفاظ السهلة الجزلة المعبرة عن المعانى العالية الا شذاناً. كل ذلك لتأثير محيطهم فى اوضاعهم واخلاقهم وظواهرهم الطبيعية

ومنها اللغة التي يتكلمون

ثم آن اوان البعثة فبعث النبي وأثرت تعاليمه في نفوسهم فأثرت في لغتهم ، فكنت تسمع فيما يدور على السنتهم الصوم والصلوة والزكوة والعبادة والايمان والاعتقاد والتوبة والثواب والعقاب وغيرها من الالفاظ الدينية [١] ناهيك بالقرآن العظيم ، وما ابقى في لغة العرب ، فقد لطفها ورقق الفاظها وبث فيها روحاً من الفلسفة الادبية ؛ ثم لم يطل العهد حتى رأينا في ثنيات الفاظهم : الالفاظ الرياضية ، والعلمية ، والفلسفية ، وذلك في العصر العباسي ، عصر سلطان العرب ، واستفحال حضارتهم العجيبة .

في ذيالك العصر رقت لهجة اللغة ، وتهذبت الفاظها ، وحلت نغماتها ، ليس من اجل انبعاث المؤلفين ، والمترجمين فقط ؛ بل قد ساعد على ذلك جمع من ذوي الذوق ، والقريحة ، وارباب الفنون الجميلة ، وهم طبقة من الشعراء ، والكتاب ، والادباء الفكهين ، ورجال الغناء ، والمطربات ، والمطربين ، فتكونت اذ ذاك آداب اللغة العربية كأرقى مايمكن ان يكون ، وبلغت شأواً لم تبلغه لغة من اللغات القديمة . [٢]

---

[١] اغلب هذه الالفاظ عرفت قبل البعثة لوجودها عند نصارى العرب قبل ولادة النبي بازمان طويلة ، يشهد على ذلك وجودها بهذا اللفظ والمعنى في اللغة الارمية (لغة العرب)

[٢] المراد باللغات القديمة اللغات السامية والا فان اللغة اليونانية والرومية كانتا قد بلغتا مبلغاً ارقى (لغة العرب)

فمن الم بآداب هذه اللغة عرف انها كيف خضعت لناموس (التحول) وكيف اختلفت باختلاف الادوار تابعة سير الناطقين بها قروناً متمادية وعرف ايضاً كيف قضى ناموس (بقاء الاصلح) على الالفاظ الخشنة الوحشية والاصول الضخمة المستنكرة والتراكيب الثقيلة بحيث اصبح الشعراء والكتاب يشمئزون منها وينفرون على مستعمليها مايفعلون . وقد حفظت المعاجم الكبيرة شيئاً كثيراً من ذلك المتاع الكاسد او قل من تلك الاعضاء الاثرية في جسم اللغة التي قضت الطبيعة عليها بالضمور ، فاصبحت لا وظيفة لها ، غير انها كل وعب ثقيل على كاهل تلك اللغة الشريفة ، ولو دونت تلك الاصول على حدة ، او اصطلح عليها قوم ، لحامت كاثقل ماتحاماه الطباع ، وانكر مايطرق الاسماع .

هذا وربما كبر ما نقول على الذين يحبون القديم ، لانه قديم ، فنقول لهم : انا لم نختلف عن سنة السلف من قبلنا ، في ما اردنا من هذه المجالة فانا لنعرف رجالاً من سلفنا الصالح ، كانوا يعتقدون بخضوع اللغة لناموس بقاء الاصلح وقد جروا فيما نظموا ونثروا والفوا على ذلك لا بل الطبيعة اضطرتهم اليه .

الف ابو الحسن احمد بن فارس اللغوي المعروف المتوفى سنة ٣٩٨ كتاب (المجمل) وهو الكتاب النادر الوجود ، ، ١ ، وقد قال المؤلف في مقدمة كتابه :

رأينا في بغداد في هذه السنة خمس نسخ قديمة من المجمل (لغة العرب)

« انشأت هذا الكتاب بمختصر من الكلام قريب، يقل لفظه، وتكثر فوائده، لتبلغ بك طرفاً مما انت ملتمسه، وسميته (مجمل اللغة) لاني اجملت فيه الكلام اجمالاً، ولم اكثره بالشواهد والتصاريف، ارادة الايجاز فمن مرافقه قرب ما بين طرفيه، وصغر حجمه، ومنها حسن ترتيبه » اه

وقد انتقد هذا الكتاب واختصره الشيخ الاستاذ ابو على الحسن بن المظفر النيسابوري، استاذ الزمخشري، مؤدب اهل خوارزم ومخرجهم، وشاعرهم في وقته. وقد وقفنا على هذا المختصر المفيد مخطوطاً خطاً قديماً فوجدنا صاحب المختصر كصاحب الاصل ممن يقول مع اهل هذا العصر بخضوع اللغة لناموس (بقاء الانسب) واليك ما جاء في صدر الكتاب :

قال الشيخ الاستاذ العالم ابو على الحسن بن المظفر النيسابوري : انى لما تصفحت هذا الكتاب، وجدته في النهاية من الاختصار والكفاية مع ما اختص به من حسن الوضع، وقرب المأخذ، وعموم النفع ورأيت ماشذ عنه من العربية وحشيا شاذاً قد درس شأنه، ! وانقضى زمانه !

وبعد فان هذا الكلام صريح فيما نريد انباءه من ان العرب عرفوا ان لكل عصر آدابا واخلاقا، وان الجمهور يناقض السنة الكونية سنة التبديل، والتحويل وتغير الاشياء، فالطبيعة تقضي على البشر بالتصرف وهم والنهاء يتطبعون على الجمود، ثم ليس ابو المظفر هذا هو كل من يقول بهذا الرأى فان في علماء العرب الاولين جما يرى ذلك. وابلغ شاهد نسوقه لك قصه الشيخ صفى الدين الحلى الشاعر المشهور مع احد

فضلاء عصره ، وقد قرأ شعره ،فقال لا عيب فيه ، سوى قلة استعماله اللغة العربية ، فكتب الصفي اليه هذه الابيات المعروفة : (٢)

انما الخيزبون والدردبيس والطخا والنقاخ والملطيس
والسبتى والحقص والهيق والهجرش والطرقسان والمسطوس

وبعد ان ذكر امثال هذه الالفاظ ، قال :

لغة تنفر المسامع منها حين تروى وتشمئز النفوس
وقبيح ان يذكر الناقر الوحـ ـشى منها ويترك المانوس
درست تلكم اللغات!! واسى مذهب الناس ما يقول الرئيس
انما هذه القلوب حديد ولذيذ الالفاظ مغناطيس

وممن تنبه لهذه المقالة من المتأخرين الشيخ كاظم الازرى شاعر بغداد في القرن الثاني عشر ، وزاد نغمه في الطنبور انه جمع الى استهجان الالفاظ القديمة استهجان المعاني المفرغة في تلك الالفاظ . ومن العجب انه كان يستعمل ما يستهجن معاني والفاظاً وهي شنشنة الشعراء الاول يقولون ما لا يفعلون . فقد كتب هذا الشاعر في ما نحن في صدده الى صديق له ابياتا جاء فيها :

يا ابا احمد رويداً رويداً انا في الشعر صاحب المعجزات!!!
ان شعر الاولى غريب المعاني! رنق غير رائق الكلمات
لو يريد الانسان امثال هذا لاتى بالالوف دون المئات
فلهذا صددت عنه صدوداً وتعوضت عنه بالبينات

(٢) راجع ديوان الحلي المطبوع في بيروت بمطبعة الآداب سنة ١٨٩٢ ص ١١٨ .

كنقاخ وطحلب وجفاخ وسنيد وشبرق وطحاة

قالى مثل هذا توجه انظار علماء العربية وذلك لينشئوا فى ابحاثهم لغة تناسب هذا العصر الذى اتضحت فيه اعمال القوى الاجتماعية والطبيعية ليسيروا معها لا ليقضوا فى سبيلها جامدين فتقضى الطبيعة على هذا اللسان العربى المبين بمقتضى اصولها المقررة الثبوت .

النجف محمد رضا الشبيبى

امثال عوام العراق

(عرس الجليلو)

الجليلو (بجيم مثلثة فارسية وهو من لفظ اهل البادية للكاف العربية كما اشرنا اليه سابقا) ، حشرة مائية يبلغ طولها من سنتيمترين الى ثلاثة وقد تزيد كبيرتها على ذلك ، لونها ليس بابيض يقق ، ولا اصفر فاقع ، بل قد يقال انه ازهر (١) ، وجناحاها ابيضان لهما شوكتان فى ذنبها ، وهى رخوة المجموع غير متماسكة البنية تتأثر من اقل ضغط وقد تختلف عما ذكرنا ، ترى على وجه الماء عند الزيادة متراكمة بعضها فوق بعض متداخلة كانها تتسافد او هى كذلك . ترتفع قليلا طائرة ثم تسقط سابحة ، ويعلل ذلك بانها تعيش فى ضفاف الانهر فاذا زاد الماء اخذها بجريه لضعفها عن المقاومة . وبهذا يفسر عدم بقائها على وجه الماء اكثر من يوم او يومين . وعندئذ تغدو فريسة

(١) هو الابيض الذى يخالطه ادنى صفرة (من فقه اللغة)